

الأمل في خط المسؤولية



يُحَدِّثُنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ يَعْقُوبَ (ع)، الَّذِي غَابَ عَنْهُ وَلَدُهُ يُوسُفَ (ع) مَدَّةً لَا تَقِلُّ عَنْ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ عَامًا لَا يَعْرِفُ عَنْهُ خَبْرًا، وَهُوَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْإِحْتِرَاقِ الْعَاطِفِيِّ عَلَى وَلَدِهِ، لَمْ تَنْطَفِئْ جَذْوَةُ الْأَمَلِ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لِبَنِيهِ: (يَا بَنِيَّ إِذْ هَبُوا فَنَدَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنََّّهُ لَا يَيْئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ) (يوسف/ 87).

يُؤَكِّدُ لَنَا هَذَا الْحَدَثُ، أَنَّ الْأَمَلَ لَيْسَ مَجْرَدَ عَمَلِيَّةِ انْفِعَالٍ نَفْسِيَّةٍ، تَهْدِي مِنَ الْوَاقِعِ النَفْسِيِّ الْمُضْطَرِّبِ الْإِنْسَانَ دَاهِمَتَهُ مُشْكَلَةً، أَوْ أَصَابَتْهُ صَدْمَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَإِنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ تَرْتَبِطُ بِخَطِّ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَكُونَ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا فَهُوَ وَالْأَمَلُ، وَكَوْنُهُ كَافِرًا فَهُوَ وَالْيَأْسُ، وَكَوْنُهُ آمِلًا فَهُوَ مُتَفَائِلًا فَهُوَ الْإِيمَانُ، وَكَوْنُهُ يَائِسًا فَهُوَ مُتَشَائِمًا فَهُوَ عَلَى شَفَا الْكُفْرِ.

فَمَا دَخَلَ الْإِيمَانُ بِلَا عَزٍّ وَجَلٍّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا وَهُوَ يَخْتِزِنُ فِي حَقِيقَتِهِ رُوحَ التَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ، وَالْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْحَيَاةِ، وَالثِّقَةِ بِمَصْدَرِ الْعَنَاءِ وَالرَّعَايَةِ الَّذِي يَمُدُّ الْحَيَاةَ بِخَزِينٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْيُسْرِ

فيعتبر الأمل هو الومضة التي نتحرّك بها في الحياة الدنيا لا من أجل الدنيا، وإنما من أجل أن نوجه الدنيا، ونخضع هامها للقيم والمفاهيم العالية، التي تتحرّك بدورها بحياتنا باتجاه خدمة الدار الآخرة.

فالقرآن عندما يُحدِّثنا عن الأمل، فهو يريد منّا أن نكون في لحظة الضعف على مشارف القوّة، لإيماننا بمصدر القوّة: (أَنْتَ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (البقرة / 165)، وفي لحظة الذل على مشارف العزّة، لإيماننا بمصدر العزّة: (أَيَّابْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (النساء / 138). بمعنى أنّا إذا ما ضعفنا وقوي علينا الآخرون، فهناك فرصة بأن نقوى (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران / 139).

فالآية تُعطي الإنسان المؤمن شعورًا بالمدد والعناية الربّانية، وتمنحه إرادة قويّة، تتحدّى الاستسلام للواقع.

بشرط أن يكون في خط الإيمان والتقوى (إِنْ تَنْتَهُوا اللَّهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (الأنفال / 29)، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلَ لَهْ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَغْ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق / 2-3).

لأنّ الإيمان يستبطن في حقيقته الأمل بقدرته [عزّ وجلّ] على تغيير الأحوال (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدْأَوْ لَهَا بِأَيُّنَ النَّاسِ) (آل عمران / 140)، بينما يستبطن الكفر اليأس من روح [عزّ وجلّ]، وعدم الثقة بقدرته [عزّ وجلّ] (إِنَّ نَافِثُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْلُ الْكَافِرُونَ) (يوسف / 87).

إذن، هذا هو الأمل الذي ينسجم مع المسؤولية الرسالية للإنسان المؤمن، قال رسول الله (ص): "الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما أرضعت والدّة ولدها، ولا غرس غارس شجرة)، فكذلك - إذن - لولا الأمل ما أدّى مؤمن حقاً للرسالة والأُمّة.

فالأمل هو العنصر الذي من خلاله يستطيع المؤمن أن يُحرِّك الدنيا باتجاه الصنع الإيجابي، والأداء الرسالي الذي يتحرَّك به نحو العزِّ وجلِّ، وباتجاه القيم والتكامل الروحي والأخلاقي.

وكلَّ أمل لا يسعى بالمرء بهذا الاتجاه فليس من القرآن، وليس من الرسالة والمسؤولية في شيء. وهو الأمل الداعي إلى الغفلة، وإلى التعلق بالمفاهيم الخيالية وغير الواقعية، الأمل الذي يقعد الإنسان عن التخطيط للغاية التي من أجلها يجب أن يتحمَّل المسؤولية (ذَرِّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الحجر/ 3).

وقال الإمام عليّ (ع): "اتَّقُوا باطل الأمل فربَّ مستقبل يوم ليس بمستدبره، ومغبوط في أوَّل ليل قامت بواكيه في آخره".

وقال (ع): "اتَّقُوا خداع الآمال، فكم من مؤمل يوم لم يدركه، وباني بناء لم يسكنه، وجامع مال لم يأكله".

فهنا يضعنا الإمام عليّ (ع) أمام مسؤولية الأمل من ناحية، وأمام خداعه من ناحية أخرى، وبهذا ينبغي أن نتحرَّك بالأمل ولا ننسى خداعه.

إذن، فالنتيجة التي نخرج بها، من خلال ما يطرحه القرآن الكريم والقادة المعصومون (عليهم السلام)، هي: أنَّ الإسلام يعطي للأُمَّة خط التوازن بين آمالها وتطلُّعاتها، بين دنياها وآخرتها، وبين حياتها وموتها، لتعطي الأُمَّة الحياة دورها وحركتها في خط المسؤولية التي أراد العزَّ وجلَّ منها، فلا أمل يسقطها في هوة الصياع والتمتاهات، ولا يأْسُ بأسرها ويقيدها في دائرة القعود والجمود.

ففي كلِّ الأحداث التاريخية التي انتصر بها الحقُّ على الباطل، كان للحقِّ >مَلته وللباطل <مَلته، وكان <مَله الحقِّ يتحرَّكون نحو أهدافهم وغاياتهم التي رسمها العزَّ وجلَّ لهم في خط المسؤولية.

فكان الأمل في حركتهم، يعني ما رسمه العزَّ وجلَّ لهم من مستقبل يتحدَّى كلَّ الصعوبات التي تعترض الطريق، وتربط الخطوات، وتجهض الحركة والمسير نحو العزِّ وجلِّ.

سواء كانت الحركة على مستوى التطبيق الفردي للعبد المؤمن الذي يسعى إلى العزِّ وجلِّ بأداء

التزاماته وواجباته، فهو يسعى على أساس ما وعده الله من الرحمة التي يرجوها ويتحدث بها عقبة اليأس (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ) (الزمر/ 9)، (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ رَبَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53).

أو كانت الحركة على مستوى مسؤولية الأُمَّة نحو الغاية المشتركة التي يتوقف عليها مصيرها، فإنَّ الأمل يتحرك في صميم مسؤوليتها، متحدثاً كلَّ العقبات والأهوال (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ سِمْهَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّ رَبَّنَا ذَلِكَ لَكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ 173-174).

فهنا يُحدِّثنا القرآن الكريم بأنَّ هذه الثلة، قد بلغت بحركتها ما ترمي إليه من غاية، وهي رضوان الله عزَّ وجلَّ في خط مسؤوليتها، وذلك بإيمانها الذي يستبطن الأمل بما عند الله من نعمة وفضل، ثمَّ حدِّثنا القرآن في هذا السياق، أنَّ الشيطان يترصد لهذا الخط، لينشر الخوف أمامكم، ويزرع اليأس في نفوسكم؛ ولكنَّه لا سبيل له إلا على أوليائه، يخوفهم بأسكم (إِنَّ رَبَّنَا ذَلِكَ لَكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ) (آل عمران/ 175)، لأنَّهم بولائهم للشيطان ضعفاء مخذولون يائسون (وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ 175).